التوبة في الكتاب والسنة

المحاضرة الخامسة والثلاثون لفضيلة الشيخ سليمان المدني

التوبة في اللغة العود والرجوع والمقصود بها في الشرع الرجوع الى الله والعودة اليه. فان الانسان وهو يعيش في هذه الارض عندما يولد صغيراً اول ما تترعرع فيه نفسه امور الغريزة، دواعي الشهوات والرغبات والنزعات والمغالبات منه حين هو طفل ولا يبتدء عنده اصل الرشد واصل العقل الا بعد بدح من السنين فتكون تلك الحياة البهيمية التي يعيشها الطفل من حين ان يفتح نظره على الدنيا قد ترسخت في نفسه بحيث ليس من السهولة جداً ان يتخلص من آثارها ومن تدخلاتها في سائر شئون سلوكه لذلك فتح الله له باب الرجوع من هذا الطريق الى طريق الله هذا الرجوع او طريقة العودة في الصحيح، ان يقال طريق العودة من طريقة الشيطان التي يحاول جهده استغلال تلك الرواسب التي نمت وترعرت في طفولة الانسان وان يدفعه لتشبث بها بل والزيادة منها الى الخروج المعتدل الذي اباحه الله هذا الرجوع وهذه العودة هي معنى التوبة.

والتوبه تنسب الى العبد فيقال تاب زيد اى بمعنى رجع وعاد، وتنسب الى الله فيقال تاب الله على زيد ومعنى ذلك ان الله اطعمه العودة اليه وقبل منه هذه العودة وحقيقة التوبة تتكون من ثلاثة عناصر.

العنصر الاول هو العلم بان الذنوب من المهلكات للانسان والعنصر الثاني الذي في الحقيقة ما هو الا نتيجة للعنصر الاول هو الندم على استعمال

ما هو مضر ومهلك اي على ارتكاب الذنب. ومن العنصر الثاني ايضاً يتولد عنصر جديد هو الارادة الجازمة على عدم مواصلة او العودة عن هذا الطريق المهلك فإذن عناصر التوبة هي العلم والندم والارادة الجازمة على عدم معاودة هذا الطريق المهلك في الحديث الشريف عن النبي (ص)

قال : (الندم توبة) واطلاق التوبة على الندم بذاته باعتباره لا يحصل الا نتيجة للعامل الاول ولانه مع حصوله تتولد منه الارادة الجازمة على عدم

العود اضراراً فإن من عرف مثلا او قال له الطبيب ان هذا المأكل او هذا المشرب سام للأجسام ولكنه اقدم بسبب جهله على شرب ذلك الشيء او أكل ذلك المكروه ثم حصل له العلم بحقيقة الحال فلا اشكال انه يندم على ما فعله في حق نفسه من أكل السم او شرب السام وبالتالي لابد وان تحصل لهذا الانسان ارادة على عدم مخالفة الطبيب مرة اخرى ولكن ما هو المقصود بالعلم . المقصود بالعلم هنا هو العلم على نحو التيقن يعني اذا حصل اليقين الجازم الذي لا يعتريه الشك في ضرر الذنب واهلاكه للانسان بحيث وصل مرتبة الايمان لان الذنوب مبعدة له عن الله سبحانه وتعالى وحاجبه له عن القرب منه فهذا العلم في الحقيقة هو الايمان بمضرة الذنب وإبعاده عن الله سبحانه وهذا معنى قول الصادق عليه السلام لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن اذ ليس المقصود منه ان الزاني لا يزني وهو مؤمن بالله فان الايمان بالله والايمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ليس على نحو التضاد والتناقض مع ارتكاب المعاصي ولاعطاء بعض التعليل حول هذه الجملة نقول ان العلم او الايمان يتم في مرحلتين . المرحلة الاولى هو ما يطلق عليه عادة علم المكاشفة .. وعلم المكاشفة يعني العلم الذي يكون فيه انكشاف في القلب ويكون مطلوب لذاته لا لغرض اخر وراءه وارقاه'شهادة لا اله الا الله بحقيقتها والعلم بتفصيلاتها والايمان بكتب الله ورسله اذ لا شك ان الانسان في بداية امره لا يعرف من معاني لهذه الالفاظ الا شيئا قليلاً او ربما لا تتجاوز تلك المعرفة عن المعنى اللغوي مثلا معنى الملائكة من منا يعرف حقيقة الملائكة ولكن بعد حصول هذا العلم وترقية يحصل انكشاف في القلب وحقيقة التوحيد وحقيقة الجنة وحقيقة النار وحقيقة الملائكة وحقيقة الكتب وغير ذلك ومن اجل ذلك يطلق على هذا العلم الذي هو في الحقيقة عين الاعتقاد بعلم المكاشفة .

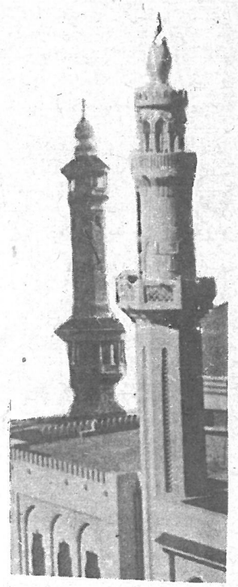

العلم الثاني وهو الذي يتفرع عن هذا العلم ويدخل ايضا في حقيقة الايمان ويدخل في حقيقة المعرفة وهو ما يراد من اجل التوصل به الى شيء آخر . لا انه يطلب لذاته ويطلق عليه في مصطلح القوم بعلم المعاملة اي انه يطلب ليتعامل للوصول الى هدف آخر وذلك كمثل معرفة احكام الوضوء او احكام الصلاة او احكام الحج او غير ذلك . اذ مجرد معرفة احكام الوضوء لا يستفيد منها الانسان اذا كان لا يريد ان يتوضا مجرد معرفة احكام الصلاة حتى لو كانت معرفتها عن طريق الادلة والاستنباط والى حد الفقاهة بل الى حد الدرجات العليا من حد الفقاهة لا يفيد الانسان شيء اذا لم يكن غرضه هو العمل بها فلذلك هذا النوع من العلم يسمى علم المعاملة معرفة الذنب، معرفة حقيقة الذنب ومعرفة مضرة ا÷ذنب ومعرفة تاثير الذنب في ابعاد الانسان عن مقام القرب من الله هذا العلم هو من حقيقة الايمان ولكنه هو من النوع الثاني فمن لا يبالي بالقرب من الله او البعد عنه لا تفيده مضرة الذنب وتاثيره على القرب من الله تماماً كمن لا يريد ان يصلي لا تفيده معرفة احكام الصلاةوتفصيلاتها فهذا العلم عندما يرتكب المؤمن الذنب حين ارتكابه ليس مؤمن بضرر الذنب لو كان يؤمن بضرر الذنب وانه يبعده عن الله تعالى ما ارتكبه هذا معنى قوله عليه الصلاة والسلام (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن) لا بمعنى انه لا يؤمن بالله ولكن بمعنى انه لا يؤمن بضرر الزنا على اخرته وربما لسبب او لآخر تبرر له شهوته ذلك مثلا ان الله غفور رحيم بان رحمة الله وسعت كل شيء على اي حال يفقد الايمان في تلك اللحظة بضرر هذا الذنب على اخرته فيقدم عليه وكل ذنب في الحقيقة يقدم عليه الانسان في حين اقدامه لا يكون ملتفت الى ضرر عليه وهذا تماماً كالمريض الذي يتناول السم بعد نهي الطبيب له ليس بمعنى انه لا يؤمن بوجود الطبيب وليس بمعنى انه لا يؤمن بنصح الطبيب ولكن يحصل عنده الشك في نفس كلام الطبيب في مضرة الاكل كما لو ذهب انسان واشترى دواء للاسهال وشربه ولكن بقي عنده شك هل انه فعلاً يسبب له الاسهال اولا يسبب هذا الشك ليس بسبب الشك في الطبيب او في نصحه بوصف الدواء ولا شك ايضا في اصل الدواء وانما ياتيه الشك في امكانية تركيب الدواء طريقة عناصره وتكوينه الكيميائي غير ذلك لا يحصل عنده التاكد واليقين لانه سوف يوصله الى الاسهال الا اذا حصله بالفعل مرتكب الذنب حين يرتكب الذنب ليس معناه انه لا يؤمن بالله ولكن يحصل عنده شك في تاثير الذنب على اخرته وعلى ابعاده عن الله ولكن ما هو الذنب لماذا نقول التوبة هي الرجوع الى الله عن الذنوب وقلنا ان اول عنصر من عناصرها هو العلم قلنا انما هو العلم اليقين بضرر الذنب على اخرة الانسان فلابد اذن ان يعرف الانسان ما هو الذنب حتى يدرك مدى تاثيره على اخرته والذنب في حقيقته ليس الا مخالفة امر المولى في حالة الفعل او حالة الترك او بالاحرى هي صفة تلحق الانسان او حالة نفسانية تلحق الانسان سبب قيامه بفعل او بترك يعتقد فيه انه مخالف لما يريده المولى منه فطبيعاً عندما يدرك الانسان انه في مقام المخالفة . يدرك انه في مقام العصيان ولا اشكال بانه لا يتعقل ان المولى يقرب العصاة منه ويدينهم. خذ اليك الموالي العاديين سواء كانوا من الموالي الذين لهم حق المولوية او الموالي الذين ليس لهم حق المولوية ولكن يفترضون لانفسهم المولوية يعني الموالي غير الله مطلقاً سواء كانت لهم حق المولوية كالنبي او الامام المعصوم او الاب او الجد او من ليست لهم حق المولوية ولكن يفترض لنفسه حق المولوية كالزعيم والرئيس والملك وغير ذلك .

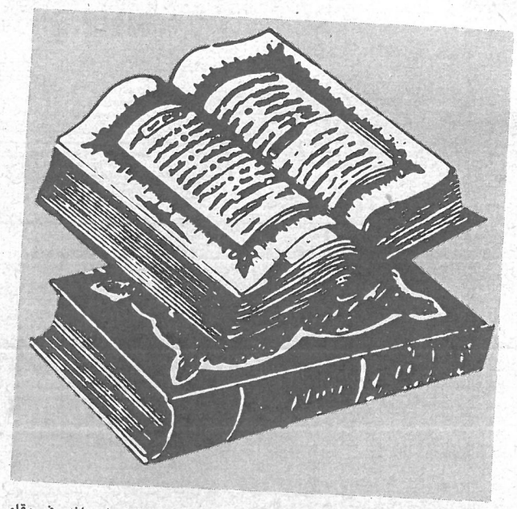

هل احد منهم يقرب اليه ويدني اليه من هو مجد في مخالفة اوامره ومعصيته في كل ما يريد من فعل او ترك مضى هل يتصور احد منا بانه اذا مضى في خلاف والده بحيث يترك ما امر به ويرتكب ما امر بتركه هل يتصور هذا الابن ان اباه ... يتقرب اليه ويدينه او يتصور مثلا ان ملك او حاكم او رئيس او مدير مدرسة او دائرة يكون تحت امراته شخص مجد في ان لا يفعل معظم ما يريد هذا المدير ان يفعل وأن يرتكز معظم ما لا يريده هذا المدير احد ان يرتكبه ثم يتصور ان هذا المدير يقربه اليه ويوليه ويدنيه ويجعله المحبب والمقرب اليه فاذن عندما يدرك الانسان انه في مقام العصيان لا شك انه يدرك انه في مقام البعد ولا يمكنه ان يتصور امكانية القرب في بقاءه على تلك الحال فاذا ادرك الانسان ادراك يقيني اى لا يعتريه الشك في ضرر الذنب عليه بالنسبة الى اخرته ووجد نفسه ليس في الطريق المؤدى الى غايته التي يريدها عن القرب من المولى لا شك

يصيبه الندم الشديد في قلبه تحتمل نفسه حسرة فاذا حصل له هذا الندم تتولد عنده ارادة جازمة بالرجوع عن الطريق الذي هو فيه وعدم المعاودة في ارتكاب المخالفة والعصيان وهذه هي حقيقة التوبة واطلاق النبي (ص) على التوبة الندم باعتباره نتيجة للمعرفة وسبب للنزوع وعدم المعاودة. والحقيقة ان هذه العناصر الثلاثة كلها متولدة عن بعضها البعض وليست بمعنى عناصر متباينة فجمع بينها بل ان الندم نتيجة للمعرفة والارادة بعدم ارتكاب ذنب مرة اخرى لا يكون الا اذا حصل الندم له في نفسه اما والعياذ بالله لو ابلس مع ادراكه بخطره انه في خطر العصيان وانه في موقف المخالفة وان هذا الموقف يؤثر عليه في اخرته لكنه فيه قد ابلس واصبح لا يبالي بالنتيجة الاخروية اما لوجود اليأس والقنوط واما للاغترار والغرور فهذا الانسان مجرد ادراكه بانه في مقام العصيان لا يجعله يتوب فنضرب مثلا لاثنين احدهما ادم والثاني الشيطان الرجيم فابونا ادم (ع) عندما ادرك انه اخطا بالمخالفة الاولوية وسوف نتعرض الى استغفار الانبياء وتوبتهم بعد قليل اصابه الندم الشديد فقبل الله ندمه وتوبته وتاب عليه والشيطان وقد ادرك انه في مقام المخالفة والعصيان لكن لم يصبه الندم والا لكان باب التوبة مفتوح للجميع يعني مقتضى قواعد العدل الالاهي ان لا يفتح الباب لهذا ويغلق عن ذاك ولذلك قال سبحانه وتعالى «اهبطوا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو. فاما ياتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون» ولا شك ان هذه الآية بعمومها واطلاقها تشمل ابليس كما تشمل ادم وحواء تاب ادم وحواء وابليس ابلس ورفض ان يتوب لماذا لانه يئس من رحمة الله قنط من روح الله وعفوه بل اشتد به طغيانه وتجبره بحيث اقسم ان يحتنك ذرية ادم حيث فاته ادم بسبب توبته فاذن ابليس كان يعرف انه في مقام المعصية ومقام المخالفة ولكن بسبب انه يئس انه اصبح يائساً من الرجوع ومن العودة ومن القرب الى الله لم يبال بالمصير الاخروي ولم يحصل عنده ندم على المعصية وعلى المخالفة واصر على البقاء في هذا المكان فصار بذلك عدواً لله وادم لما ادرك مقام المخالفة ولكن لم يحصل عنده اليئس والقنوط من رحمة الله وعزّ عليه ان لا يكون قريباً من المولى سبحانه وتعالى اصابه الندم فنزع عن الخطا وصمم العزم على عدم المعاودة فاذن ما لم يحصل ندم لا تتولد الارادة على عدم المعاودة على الذنب ولذلك صار هذا العامل او هذا العنصر هو العنصر الرئيسي في التوبة وان كان في الحقيقة فرع عن العلم والمعرفة ولكن كما قلنا لما كان هذا العلم وهذه المعرفة انما هو من علم المعاملة اى من العلوم العملية التي تراد لغيرها ما لم تحصل منها الثمرة فوجودها وعدمها سيان ومن ثمرتها الندم وثمرة الندم هي الارادة

البقية في العدد القادم